

(تفسير الشّيخ البرّاك)

القارئ: أعود بالله من الشّيطان الرّجيم: {وَلَلَّهِ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تُولُوا فَشَّمَ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلَيْمٌ} [١١٥] وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّهُ قَاتِنٌ وَاسِعٌ عَلَيْمٌ [١١٦] بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [١١٧] وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِنَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مُثْلُ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ [١١٨] إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ [١١٩] وَلَنْ تَرَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبَعَ مُلَّتُهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعُتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الذِّي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٌّ وَلَا نَصِيرٌ [١٢٠] الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتَلَوَنَهُ حَقًّا تَلَاوَتْهُ أُولَئِكَ يَؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [١٢١] يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نَعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [١٢٢] وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجِزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعةً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} [البقرة: ١١٥-١٢٣]

الشيخ: أحسنت، لا إله إلا الله.

يتقلّ -سبحان الله-، ينتقل الكلامُ بهذه الآيات إلى ذكر بعض قبائح المشركيين من أهل مكة من قريش وغيرهم {وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ مَنْ نَعَمَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [البقرة: ١١٤]، أولى من يدخل في ذلك الَّذين يصدُونَ عن المسجد الحرام، وهذا المانع سوف يرد له حديث في هذه السُّورة، {وَاصْدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفُرْ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ} [البقرة: ٢١٧].

ثم يأتي الإشارة على القبلة، والقبلة هي الكعبة، ويبدأ وتأتي الإشارة في قوله: {وَلَلَّهِ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تُولُوا فَشَّمَ وَجْهَ اللَّهِ} قال بعض المفسرين: {فَشَّمَ وَجْهَ اللَّهِ} يعني الذي هو صفتُه وجهُه الكريم {وَلَلَّهِ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تُولُوا} إلى أي جهة توجهُتْ هنَاكَ وجهُ الله، فكلُّ من صَلَّى إِنَّه يُستقبل ربُّه، وقيل: بل المراد بالوجه هنا الجهةُ المرادُ القبلةُ، وهذا هو المرويُّ عن الكثيرِ من السلفِ {وَلَلَّهِ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تُولُوا فَشَّمَ وَجْهَ اللَّهِ} أينما تولُوا من الجهات التي أمرتم باستقبالها فهي جهةُ الله، فهي الوجهُ الذي شرعَهُ اللهُ لكم وسيأتي قوله تعالى: {سَيَقُولُ الْسُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا لَاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ التِّي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لَلَّهِ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ يَهُدِي مِنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: ١٤٢]، ويأتي قوله تعالى: {لَيْسَ الْبَرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبَرَّ مِنْ أَمْنِ بِاللَّهِ} [البقرة: ١٧٧].

ثم يذكُر اللّه من قبائع المشركيَن نسبة الولد إلى اللّه، وهذا مشتركٌ بين اليهود والنصارى والمشركيَن {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللّهُ ولَدًا سُبْحَانَهُ بِلَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّهُ قَاتِنُونَ} الكلُّ ملْكُهُ هُم عبيدهُ {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَتَيَ الرَّحْمَنَ عَبْدًا} [مريم: ٩٣]، وقد ردَّ اللّه على المشركيَن وغيرهم هذا الباطلُ والإفتراء بنسبة الولد إلى اللّه كذبَهم في آياتٍ: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ} [المؤمنون: ٩١]، {وَقُلِّ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ} [الإسراء: ١١١].

وكذلك من تعنتٍ المشركيَن قولُهم: {لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ}، {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} هذه شَنَشَنةٌ كما يقالُ من أممِ المكذيبين يطلبونَ أمورًا تعنتًا {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا} [الفرقان: ٢١]، في سورة الفرقان، سُبْحَانَ اللَّهِ {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا} [الفرقان: ٢١]، ومن هذا القبيل...، وهنا يقولُ: {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} وهذا له نظائرٌ يعني تشابهُ الأممِ المكذبة في طلباتِهم، وفي ما يَصْمُونَ به الرُّسُلَ كقولِهم: {أَتَوَاصَوْا بِهِ؟} {أَتَوَاصَوْا بِهِ كَانُوهُمْ قَدْ تَوَاصَوْا بِهِ} [الذاريات: ٥٣].

بعد ذلك يعودُ السياقُ إلى ذكر اليهود والنصارى مرةً أخرى لبيان أيضًا موقفهم من المسلمين الرَّسُول والمؤمنين {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبَعَ مِلَّتَهُمْ} وهذا شأنُ كلِّ المكذيبين من اليهود والنصارى والمشركيَن كما سيأتي {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يُرْدُو كُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أُسْتَطَاعُوا} [البقرة: ٢١٧]، {وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا} [النساء: ٨٩]، هذا مطلبُ للكفار، هذا ما داموا إِنْهُمْ، وقبلَ هذه الآيةِ {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُرْدُونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا} [البقرة: ١٠٩]، هذه أمنيةٌ لهم.

بل إنَّهم لا يرضونَ بمجرد الكفر والرِّدة بل يريدونَ أن يكونوا على ملتهم {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبَعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}.

وختُمت هذه الآياتُ بخطابٍ صريحٍ لبني إسرائيلَ {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، فختُمت الآياتُ المتعلقةُ بأهل الكتابِ ببني إسرائيلٍ خُتِمت بمثلِ ما بدأَتْ به فهذه الآيةُ نفسُها جاءَتْ في أولِ السياقِ {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نَعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَلَّتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} جاءَتْ في نهايةِ الآياتِ المتعلقةِ ببني إسرائيلَ، أهلِ الكتابِ من اليهودِ والنصارى خُتِمت بنفسِ هذا المعنى {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا}، فهاتانِ

آيتان قد تقدّمتا، الآية الأولى بلفظ هذا تماماً، والآية الثانية مع شيء من الاختلاف {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ} [البقرة: ٤٨]، هذه هي الآية المتقدمة، وهنا يقول: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعةٌ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ} [البقرة: ١٢٣]، ففي هذه الآيتين ذكر النّفس الجازية والمجزية الجازية عن غيرها والمجزية {لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ}، {لَا تَجْزِي نَفْسٍ}، النّفس الأولى هي الجازية، والثانية المجزي عنها {عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً}، وقوله في الآية الأولى: {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} المراد النّفس الأولى الجازية، والثانية في قوله: {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعةٌ} هي المجزية وبهذا يظهر الفرق بين هاتين الآيتين، والله أعلم.